حديث الذكريات مع آخر مدير للمدرسة السعيدية

توفيق عزيز..
رجل من زمن التعليم الصعب

حملته أقداره من فلسطين عام ١٩٥٦ وبقي في عمان.. حتى الآن

من يشاهد الصور القديمة لمسيرة التعليم الحديث في السطنة والتي بدأت عام ١٩٧٠ يلحظ رجلا يقف قريبا من جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم وهو يوزع الجوائز في حفل مدرسي أقامته المدرسة السعيدية بمسقط..

ذلك هو توفيق عزيز، كان حينها مديرا للمدرسة، إحدى ثلاث مدارس في السلطنة في أول سنوات مرحلة السبعينيات، شاهد على عصر التحولات، ليس في عمان فحسب، بل في المنطقة التي وصلها عام ١٩٥٦ لاكتشاف المكان كمدرس ليبقى فيها عشرات السنين.

الحوار معه استرجاع لملامح من ذلك التاريخ..

يتذكر فيقول: قبل أن أحضر الى عمان كنت في سوريا، حيث عملت فيها ثماني سنوات بالتحديد، كنت أعمل في مدرسة على الحدود الأردنية ـ السورية، كانت هناك مدرسة حديثة ليس فيها لا مدير ولا مدرس ولا فراش، فيها اربعة فصول وتلاميذ، يضيف: قيل لي اذهب ودرس في هذه المدرسة فكنت المدير والمدرس والفراش وقسمت التلاميذ الى قسمين، قسم وضعته في غرفة للأول والثاني الابتدائيين وقسم آخر في غرفة أخرى للثالث والرابع الابتدائيين، فكنت أدرس جميع المواد لتلك الصفوف الأربعة.

المدرسه السعيدية في مسقط

من زيارات جلالة السلطان للمدرسة وبجواره مدير المدرسة توفيق عزيز

يسترجع الذكريات فيقول: جئت الى السلطنة سنة ١٩٥٦، ولا يخفى عليكم ان عمان في تلك الأيام كانت تعيش حياة بدائية، لكن الناس كانوا متحمسين جدا للتعليم، والذي يؤكدهذا الحماس هو يوم مجيء المدرسين بعد عطلة الاجازة الصيفية وحضورهم الى السلطنة، كنا نأتي الى عمان عن طريق البواخر، كنا نأتي الى بغداد بحافلات،

كان جلالة السلطان يزور المدرسة مرتين أسبوعيا

ومن بغداد الى البصرة بالقطار ومن البصرة الى مسقط بالباخرة (بواخر كبيرة).

يتذكر أكثر تلك المرحلة المهمة: كنا خمسة مدرسين من الشمال، يسموهم من شمال عمّان، يعني فلسطين والأردن ولبنان، خمسة فقط، هذا العدد لا يزيد أبدا، طيلة مدة وجودي في المدرسة السعيدية في مسقط هذا العدد لم يكن يزيد، اذا ذهب واحد يأتي آخر بديلا عنه، هذا قبل السبعينات، وفي تلك الأثناء المدرسة كانت ابتدائية، ولكن مستوى التعليم فيها أعلى بدليل انه من ينتهي من مدرسة مسقط الابتدائية يذهب الى الخليج ينهي الصف السادس هنا ثم يذهب الى الصف الثامن في دول الخليج الأخرى أو التاسع رأسا فكان المنهج عالي المستوى، وكما لا يخفى لم يكن يوجد تلفزيون أو غيره من الملهيات كما حاصل في الوقت الحاضر، فالتلميذ همه الدراسة في الصباح والرياضة في المساء، يوميا بعد الظهر كانت حصص الرياضة موجودة، ليست رسمية ولكنها أنشطة، وكنا نحن المدرسين نشارك الطلبة في أنشطتهم الرياضية.

يسترجع مشوار الرحلة في خمسينيات القرن الماضي، يقول: الرحلة تمتد من بيروت ودمشق الى بغداد ثم الى البصرة بالقطار ثم من البصرة الى مسقط بالباخرة وتستغرق رحلة الباخرة ٨ أيام ، المشهد الجميل تلك الأيام هو الميناء الصغير الموجود في مسقط وتجمع أولياء الأمور والطلبة لاستقبال المدرسين بما يشبه يوم العيد، فعلا كان يُعدّ ذلك اليوم يوم عيد، ولا أبالغ إن قلت إن حوالي ٧٠ بالمائة من الأهالي والطلاب يخرجون لاستقبال المدرسين وكانت فرحة ان نلتقي بهؤلاء الناس المتحمسين للعودة الى المدرسة.

يتحدث توفيق عزيز عن ظاهرتين لافتتين في تلك الفترة: الظاهرة الأولى تشوّق الطلبة لتلقي التعليم والحفاوة التي نجدها من أهاليهم بما يدل على رغبتهم الكبيرة في تعليم أبنائهم، والظاهرة الثانية هي القائمة الطويلة للانتظار الموجودة لدى المدرسة، كانت المدرسة تأخذ الطلاب الأكبر سنا وليس الأصغر، وكنا نعد الطلاب الأصغر بأن حظهم سيكون بعد عام أو بعد عامين حسب سن الطالب، فكان يدخل الطالب في الصف التمهيدي في تلك الايام وعمره ٨ سنوات، ويعود ذلك الى عدم وجود أماكن في المدرسة، وفي المدرسة السعيدية اضطررنا إلى فتح فصلين دراسيين تحت ظل شجرة من أجل استيعاب أكبر عدد ممكن من الطلبة.

كان وصول توفيق عزيز إلى السلطنة في عهد السلطان السابق السيد سعيد بن تيمور، ورغم أنه متخصص في تدريس الرياضيات والعلوم إلا أنه قام بتدريس اللغة العربية أيضا فالمدرسة لا يوجد بها مدرس لمادة العربي، يقول: كان الخريجون في السنين السابقة يلمون بالمواد الأساسية إلماما كافيا لتدريس أي مادة من المواد سواء الرياضيات أو العلوم أو اللغة العربية أو اللغة الانجليزية، حتى الفن والرسم كان بامكان المدرس في ذلك الوقت

من كتب المنهج الدراسي

ان يقوم بتدريسه، اضافة الى تدريس التربية الاسلامية والتربية الرياضية، فكانت كلها مجتمعة يقوم بتدريسها معلم واحد.

يروي عزيز رحلته من التدريس في سوريا وصولا إلى عمان، يقول: كان لي صديق يعمل معنا في مدينة درعة السورية، وهو المرحوم علي القاضي الذي كان هو مدير المدرسة السعيدية بمسقط، وقبل إنه يأتي الى مسقط كان يعمل معنا في درعة السورية، ويقيم في بيروت، وكان هناك اعلان عن طريق المعهد الثقافي البريطاني يشير الى حاجة السلطنة الى مدرسين، وكانت تتم التعاقدات عن طريق بيروت، فتعاقد معهم الاستاذ علي القاضي وكتب الي في درعة، وقال لي أنا الآن في عمان، واذا أحببت أن تأتي في السنة القادمة سوف تتم المقابلة في المعهد الثقافي في بيروت وفعلا ذهبت الى بيروت وقابلنا مندوب المعهد الثقافي البريطاني، وحضر عدد كبير من الشباب للمقابلة وكان اختياري للمجيء الى السلطنة، علما أن المعهد الثقافي الموجود في بيروت كان يقوم بالتعاقد مع المدرسين لجميع بلاد الخليج، للكويت والبحرين وقطر والإمارات.

كنت اشتغل في ذلك الوقت بمدرسة ابتدائية تابعة لوكالة هيئة الأمم المتحدة ثم انتقلت الى دمشق للرياضيات والفيزياء حسب تخصصي، وعندما سمعت ان هناك حاجة الى مدرسين بمسقط ويوجد صديق لي هناك الاستاذ علي القاضي رحمه الله فقلت اذهب، ولم يكن هناك مغريات مادية ابدا، ولكن كنا شبابا في تلك الآونة، أنا من أصل فلسطيني، ولأنني حرمت من الوطن فكل البلاد العربية أوطاني، قلت اذهب مغامرة، وفعلا كانت مغامرة، ولكنني أحببت هذا البلد وبقيت فيه وكانت النية أن أجلس سنة واحدة وامتدت سنوات عديدة وبقيت تلك المدة الطويلة، وأكرر لم تكن هناك اغراءات مادية أبدا، بل بالعكس كان الراتب أقل من راتبي الذي أتقاضاه في دمشق.

يتذكر توفيق عزيز المنهج الدراسي في تلك المرحلة من بدايات السبعينيات، يقول أنه كان مزيجا، القراءة العربية كتاب من لبنان، اللغة العربية (قواعد اللغة العربية) كتاب من مصر، كتاب المروج من الكتب التي تدرس في لبنان، والاجتماعيات أي التاريخ والجغرافيا كان كتابا فلسطينيا لسعيد الصباب، الرياضيات كتب لبنانية، والتربية الاسلامية كانت كتب عمانية (تلقين الصبيان) للشيخ نور الدين السالمي، وبالنسبة لتاريخ عمان وجغرافية عمان فهما للشاعر المعروف السيد هلال بن بدر البوسعيدي وكان يكتب التاريخ هذا حسب اطلاعه وحسب الوثائق الموجودة عنده ويعرضها على الحكومة أولا توافق عليها ثم تدرس للتلاميذ في ذلك الوقت.

يتذكر توفيق عزيز زيارات جلالة السلطان قابوس للمدرسة السعيدية، يقول إنه كان يزورها مرتين كل أسبوع، وأقامت المدرسة أول مهرجان رياضي في عمان خلال أول عام دراسي بعد انطلاق نهضة عمان المعاصرة عام ١٩٧١ ورعاه جلالة السلطان قابوس، ولأنه لا توجد مدارس أخرى للاشتراك في المهرجان قسمنا الطلاب جميعا الى أربع فرق، وبدأت مباريات ألعاب القوى بين الفرق الأربعة.